صورة قلمية

اسعد باسيلي باشا

بقلم نقولا شكري

رجلٌ مثقف ، هادىء ، قوي الارادة ، واسع أفق التخيل شديد الملاحظة ، متسع الذكاء ، أوتي من رزانة العقل وقوة النفس ، وشدة الطبع ، وسعة الحيلة ، ما لم يرزق كثير

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، في العقد السابع من العمر ، نحيف الجسم ، معتدل القامة ، متواضع السمت ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه البائس النبيل الهدوء العجيب ، والرقة والحزم معاً ، يحدثك في صوت هادىء ، وعبارات سهلة ، فيهرك بوفرة معلوماته ، لانهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، فلا تفوتهُ بادرة من حوادث العالم ، وقد درس فلاسفة عصره وكتَّابه العظام ، من أميل زولا الى تولستوي . ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

وشخصية اسعد باسيلي باشا الى هذا كله فيها سهولة وفيها تعقيد ، وفيها جوانب لا تدق على الباحث ، وفيها جوانب اخرى تدق على المستقصي ، ولكنها في الحالين شخصية الجيل التي قلما تتكرر . وهي شخصية فيها ما يجتذب الاديب ، وما يجتذب الفيلسوف ، وما يجتذب التاجر ، لانها جمعت اليها انواعاً من الخصائص التي اتاحت لها ان تكون جذابة ، وان تكون مؤثرة في اولئك وهؤلاء

واني — مع عرفاني البالغ بهذه الشخصية الكبيرة — لن ازعم للقراء اني استوعبتها وتناولتها من وجوهها جميعاً ، لن ازعم ذلك فما هو بالهين ان يضم هذا الفصل اليسير خصائص ، وما هو بالامر الهين ان يكون البحث وراء هذه الشخصية وليد السرعة والايجاز ، ولكني مع ذلك سأتحدث عن اسعد باسيلي الاديب والباحث والتاجر . واني لأرجو ان اكون في

دراسته موفقاً بعض التوفيق ، وألاّ يدخل في روع احد اني أقرضهُ الثناء ، فما لشيء من هذا كله أتحدث عن اسعد باسيلي ولكني أتحدث عنهُ لانهُ كما أسلفت شخصية قلما تتكرر في جيل واحد . . .

ويطيب لي ان اتناوله من مرحلة شبابه ، تلك المرحلة التي اكتملت فيها اسباب التكوين لهذه الشخصية الممتازة ، فأقول ان اسعد باسيلي لم يكن من اولئك الذين يعيشون في ظل محدود ، وفي موطن محدود ، وانما كانت له اطماع الرجل الذي اتقبه الى خصائصه وفطن الى ما فيها من جلال ، وما لها من روعة ، فاتخذ منها مشعلاً لنفسه وكان هذا المشعل باهر الضوء ، رائع الشعاع . ثم كان من شأنه ان يمضي في كشف هذا الضوء وان تكون خطواته لا تعزفها ولا التواء

ولقد كانت مرحلة شبابه مقترنة بهذا البعث الهائل لتلك الرسالة الضخمة ، رسالة التجديد الشامل في بعض مراميه ، المتحفظ في كثير من اغراضه ، وقد تحمّل نصيبه من ادائها أيام دراسته في مدينة طرابلس الشام حين كان يتولى الاشراف على التعليم في مدرسة « مار الياس » كعضو بارز في الجمعية الخيرية الارثوذكسية ويراسل امهات الصحف في بيروت والقاهرة

***

واكبر الظن عندي ان تأثير هذه المرحلة كان التأثير القوي الفعال ، فهذه شخصية أسعد باسيلي قد بدأت تعبر الفضاء الرحيب ، متجاوزة حدود مدينة طرابلس ومتجاوزة مع ذلك حدود الطلاب الذين يجمعهم هذا القائد الشاب

ونحن في هذه المرحلة حيال ناحيتين : تمثل الناحية الاولى في جهاده كباحث واديب وقف حياته لهدم التركيب من القديم . ولبث الآراء والمبادىء الجديدة في مجلة « الجامعة » التي تولى اصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير المرحوم فرح انطون ففي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث الطيبة التي كانت تنشر في أثناء النهضة الاخيرة ان يطلعوا على نخبة من الموضوعات الفلسفية التي كان أسعد باسيلي الاديب يعلن فيها وتتشزر أيه في « العلم والدين » وما الى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف « سبنسر » ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم

وتتمثل الناحية الثانية في الحقبة القصيرة التي قضاها في تجارة الاخشاب مع شقيقه المرحوم انطونيوس باسيلي في طرابلس الشام . وأنها لناحية جزيلة الاثر في حياته ، فقد استطاع بمواهبه ، وبأعماله الحافلة بمشاهد الصدق والاستقامة ان يوقظ في بني وطنه عاطفة التوقير لمقامه التجاري

هاتان الناحيتان — ومكانة أسعد باسيلي منهما هي مكانته — قد أبقتا في شخصيته الجوانب التي أصارته فيما بعد رجلاً في الطبقة الاولى بين الرجال

واخذت شخصية أسعد باسيلي بعد ذلك تتجاوز البيئات الخاصة وتفرض نفسها على الحياة العامة من ذلك اليوم الذي أبحر فيه الى مصر مع مواطنه الاديب الكبير فرح انطون لاصدار جريدة يومية يبثان فيها آراءهما الجريئة ولكنهما لم يلبثا ان اختلفا على تفصيلات هذا المشروع فأفضى هذا الخلاف الى انصراف اسعد باشا عن الصحافة الى ميدان التجارة حيث برزت كفايته التجارية وأطلت على مصر من هامة الارز . وآثر فرح انطون ان يظل في ميدان الكتابة والتأليف ويسير فيه الى آخر الشوط

ونعتقد انهُ لو تخيَّر اسعد باشا وتتنزان يكون ذلك الصحفي البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان أقل توفيقاً وربما كان نجاحه يعود على الجيل بنتائج شديدة النفع والاثر

***

اذن لم يسلك أسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كأكثر المشتغلين بالتجارة ، وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع الى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الاَّ بالحقائق الملموسة . على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وأن هناك حقيقة أساسية قام عليها بنيان الاديان »

اما فنه في الكتابة فمع انهُ كان محتفظاً فيه بشيء من الرشاقة الاَّ انهُ اصبح مسبوقاً بطائفة من الكتاب المحدثين الذين انجبهم تطور العصر . ولكن رسائله ستبقى على الزمن لانها من صميم المثل الاعلى . . . وقد كان كاتباً متنوّعاً كثير الابواب ، جم الاحاطة ، بالغ التفوق ، فقد كتب في أدق مسائل الاجتماع ، وأعمّ مسائل الحياة ، فلهُ رسائل قيمة في العلاقات الزوجية ، وبحوث أدبية شائقة . ولما تخلى نهائيًّا عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية الرفيعة ، وأقبل على تجارة الخشب ، أحرز في الزمن القصير مقاماً ونفوذاً واتساعاً في الاعمال لا تتوافر لغيره في الزمن الطويل

***

أقبل أسعد باشا على تجارة الخشب في الاسكندرية والسوق التجارية ممتلئة بجبابرة التجار ودهاتهم . ولكنهُ لا ينقصهُ النشاط الذي يكافح به ، وعرف كيف يقاوم العوامل العديدة التي تعمل على محاربة التاجر الناشيء وهزيمته ، فقد وقف وحده غير مبال بضروب النضال التي

حُشدت لمقاومته ، واستطاع ان يهزم خصومه بأسلحة أشد من أسلحتهم ، تساعده في ذلك ارادة صلبة وخبرة واسعة وذكاء متوقد

وقد ظلّ يشق طريقه بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وربما قامت واردانه مقام الضعفين من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف بأننا لا نستطيع الاشارة اليه دون ان نلقبهُ بملك الخشب

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول أمام الذين يتمنون الوصول الى الغاية . ولكن الذين لا يكلون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطًا مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفهُ البطل بين الصفوف ، دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركهُ في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

***

قلنا ان الطريق تمتد وتطول أمام الذين يتمنون الوصول الى الغاية . ونضيف الى ذلك ان الاقدام رأس النجاح ، وفي أمثال الاميركيين المعاصرين ان فرصاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلّم الجرأة ، والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

وما زال أسعد باشا رغم مشاغله التجارية الكبيرة يعطف على الفكر والادب . فمن عاداته ان يأوي بعد الغداء الى مكتبته الانيقة ليعيش فيها بين كتب الادب والاجتماع ، ثمرة أذهان جيل او يزيد تحوطهُ وتشارفهُ . فلا يحرم من الجو الذي لا يموت فيه الذهن ، ولا تصدأ فيه القريحة ، وفي هذا ولا ريب عزاء الادباء بعد اعتزاله اياهم

ومن الحق ان نقول ان العمل التجاري لم يمنع هذا الرجل المفكر من ان يطل على الناس الحين بعد الحين . ولم يحل بينهُ وبين عرض الصور التي تلوح في ذهنه على الجمهور ، واخراج ثمرات قريحته كلما رأى الفرصة سانحة والزمن مواتياً ، فقد قرأنا لهُ في العام الماضي بحوثاً طريفة في الازمة الاقتصادية بعث بها الى جريدة المقطم من اوربا وهكذا أقام الدليل على انهُ لم ينس الناس ولم ينصرف عن الجمهور شأن كثيرين من أهل الفكر بلغوا الذروة في التجارة ، أو قعدوا مقاعد الحكومات ، وتولوا الوزارات والرئاسات ، فقد كان لورد بكونسفيلد على رأس الوزارة الانجليزية فلم يمنعهُ منصبه على خطورته ان يضع ذهنه في كل مكتبة ، ويعيش في خزانة كل قارىء فينا هو ينشىء المحالفات ، ويوقع المعاهدات ، ورأس الوزارات ، اذ هو طارح عنهُ كل ذلك عائد الى حجرته ، ليغيب في تفكيره ، ويأخذ في وضع رواياته ، ثم نحن لا ننسى ايضاً

ان جوته كان وزيراً ورئيس بلاط دوق فيمار فما كان ذلك ليقتل فيه الروح المضطرمة في جانحته ، والنزعة الفكرية التي تتقد في فؤاده . ثم لا ننسى كذلك ادباء العرب الذين عاشوا في قصور الخلفاء ، وولوا الولايات ، فابوا الاّ ان يظلوا مع ذلك ادباء وكتّاباً اكثر منهم ولاة وحكومين ...

واسعد باسيلي باشا قد شق طريقه الى المجد باقدامه وشجاعته ، وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة او الاقتصاد ، وهو يجمع الى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل ، وحياة الضمير في دائرة العمل المادي أقوى منها في سائر الاعمال الاخرى ، فهو أريحي كريم ، والتاجر الكريم عنصر غريب في أهل صناعته ، لان اكثر التجار يستمسكون بالاخلاق التجارية في الحياة العامة لانهم يدخلون أموالهم في الدفاتر والسجلات ولعلهم يرون خروج شيء منها ضرباً من التكلف والمشقة وفساد النظام . ولكن المبرات التي يخرجها التاجر من فضل ارباحه هي وسيلة جميلة من وسائل الزيادة فيها ومباركتها ، وانت ترى روكفلر الاميركي ملك المال ، قد كان لهُ من ملايينه العديدة غنى عن التماس حب المساكين ، واكتساب قلوب المنكوبين في الحياة ، لان لهُ متاجر ضخمة لا تعد وأموالاً مركومة لا تنفد

ولكن الحياة لا قيمة لها اذا خرج الانسان منها ولم يستطع ان يكتسب قلباً واحداً من قلوب هذه الارض ، ولو كان روكفلر هذا قصر عنايته على ماله وثرائه ، فلم ينشىء الملاجىء والمعاهد والمستوصفات والجامعات ، ولم يخرج من دفاتره جزءاً كبيراً مما دخلها ، لخرج هو الآخر روكفلر فقط ، ولكن روكفلر عرف معنى الحياة وأدرك قيمة المال في نفسه ، فاشترى بكل ثروته كلمة واحدة اراد ان يذهب بها الى الابد وهي كلمة « روكفلر محسن »

***

وعلى هذا المبدأ سار اسعد باسيلي فهو ينفق جزءاً كبيراً من ارباحه على الفقراء والمحتاجين واعانة الاسرات التي ادركها البؤس ، فلم يلبث ان اصبح محبوباً من الناس ، جميل الذكر بين الطبقات ، وكان من ذلك ان انتخب رئيساً للمجلس الطائفي للروم الارثوذكس المصريين ، ورئيساً للجمعية الخيرية السورية الارثوذكسية ، ووكيلاً للغرفة التجارية المصرية ، وقاضياً محلفاً بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، ثم عرفت الحكومة المصرية مكانته السامية ، فطلبت الى مجلس الوصاية الموقر الانعام عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، فأصدر المجلس امره بهذا الانعام السامي

وسبق آخر الامر ، ان أعترف اليك ايها القارىء بانني لا أعرف رجلاً أعذب حديثاً ، ولا أبعد شرًّا ، ولا أقرب خيراً ، ولا أحلى خلقاً وروحاً ، من أسعد باسيلي باشا